حول الحر

للأستاذ أحمد أمين

اشتد الحر وشغل الناس بالتفكير فيه، وبطرق التغلب عليه، وبالتأفف منه، فهذا يدبر المال للأقامة فى مصيف فيوفق ويرحل، وهذا لا يواتيه المال فيقيم على مضض، وهذا نزاع عائلى بين ميزة الاصطياف فى أوربا والاصطياف فى الاسكندرية، وهذا غنى أفلس يأتى عليه الحر فيذكره بأيام هنية قضاها فى أجود المصايف وأنزه الأماكن، فتجتمع عليه لذعة الحر ولذعة الذكرى — وهذا بائع المرطبات والمبردات يسأل الله أن يزيد فى الحر حتى يكثر بيعه، ويزيد ربحه؛ وهذا يرقب درجة الحرارة من حين لآخر ليعلم أتحسن الجو أم ساء، وهو يتبع المقياس فى رضاه وسخطه، وهذا يقرأ نشرات مصلحة الطبيعيات ليقارن بين القاهرة والاسكندرية، والقاهرة وبور سعيد، فان كان فى الاسكندرية رثى لمن فى القاهرة، وإن كان فى القاهرة حسد من كان فى الاسكندرية؛ وإن كان فى أسيوط عزى نفسه بقـلة الرطوبة وجفاف الهواء؛ ومن كان فى مصر كلها حمد الله على أنه ليس فى أمريكا حيث يختنق الناس — وهذه شغلها التفكير فى المقارنة بين حمام ستانلى وسيدى بشر: أيهما أكثر ناسا، وأنظف مرتاداً، وأحسن للعرض وأمتع للنفس. وهذا يرتقب غروب الشمس التى تكويه بنارها، ليخرج الى الجزر والأنهار والمقاهى المفتوحة والملاهى فى الجو الطلق، فينتقم فى ليله من نهاره — وهذا وهذا وهذه وتلك مما لا يعد ولا يستقصى؛ ولكن لابد من «هذا» أخرى أنسيتها، فهذا كاتب وشاعر شغله الحر من ناحية أخرى فهو يريد تشبيهاً جميلاً للحر أو تعبيراً بليغا، فيقول: هذا الجو أحرّ من الرمضاء، وأحرّ من دمع الصب، وأحر من قلب العاشق، ومن فؤاد الثاكل؛ ثم لا تعجبه هذه كلها فيريد تشبيهاً مخترعا، أو عبارة مبتكرة، أو استعارة بديعة، فيسبح فى الخيال، وينسى الحر، وهى حيلة لطيفة للتخلص منه!!

أما أنا فقد ضايقنى الحر، وحرت بين مصر والاسكندرية، تؤلمنى الأولى بحرها القاسى، وتؤلمنى الثانية برطوبتها الثقيلة، ووددت أن لو كان لى من المال ما يمكننى من أن أطير صباحاً فأقضى النهار فى الاسكندرية، وأطير مساء فأقضى الليل فى القاهرة

وأخيراً رأيت أن أهرب من الحر حيناً بالتفكير فى الكتابة فيه، وقلت إنها فرصة جميلة أن أكتب فى الحر، فان خرج المقال قيماً ممتلئاً حرارة وقوة ربحت ربح المحسن فى عمله — وليس لى كبير أمل فى ذلك — وإن خرج المقال بارداً أكون قد أحسنت الى الناس فرفهت عليهم، وانتقمت من الحر، وأعنتهم عليه؛ وأية فرصة للكاتب خير من هذه؟ يحسن اذا أحسن، ويحسن إذا أساء؛ وللانصاف لابد أن أعلن أنى لست مبتكراً لهذا المعنى، إنما سرقته من نادرة لها اتصال بالحر، فقد أنشد بعضهم بيتاً من الشعر، فقال سامعه: إن هذا البيت لو طرح فى نار المتنبى لأطفأها، ويريد ببيت المتنبى قوله:

فى فؤادِ المحب نارُ جوًى   أحرُّ نار الجحيم أبردُها

فكذلك أردت أن أثأر لنفسى وللناس من حرّ هذا العام بكتابة مقالة تطفئه، وأخشى ما أخشاه أن تخرج فاترة، لا بالحارّة فتعجب، ولا بالباردة فتطفئ

***

أول ما خطر لى فى الحر أنى الآن لابس ثوباً خفيفاً أبيض، واسعاً فضفاضا، مكشوف الرأس، عارى القدمين، جالس فى حديقة، أشجار عن يمينى، وأشجار عن يسارى، وحوض زهر أمامى، وقد رشت الأرض من حولى، وبجانبى إناء مما يحفظ فيه الماء مثلوجاً، لا أدرى ما اسمه بالعربية، وأخشى أن أقول «ترمس» فينقدنى علماء اللغة؛ وكل شىء حولى يرطب الجو ويلطفه ويعدّله، وأنا مع هذا كله برم بالحر، ضيق الصدر، مغيظ محنق، أتلمس أقل سبب، لأعلن الغضب — وعلى البعد منى أصوات ترتفع بالنداء، هذه تحمل قفصاً مملوءاً بالفراخ، وهذا يجر عربة ملئت بأصناف الخضر، وهذا ثالث يحمل على رأسه سفطا كبيراً قد ملئ بالتين أو العنب، وهو سائر طول نهاره فى هذا القيظ ينادى، لا يعبأ بشمس ولا حر، ولا يضجر كما أضجر، ولا يألم كما آلم، ولا يفكر فى الحر كما أفكر — أليس فى الأرض عدل؟ أليس الشقاء قد أكسبه مناعة وقوة؟ أو ليست الرفاهية والمدنية والنعيم قد حرمتنى الجلد والاحتمال؟ إنه ليسعد عما أشقى به، إنه ليسعد بشربة ماء من كوز من حنفية،

ويسعد بالارتماء فى ظل بيت فى الشارع بعد أن أعياه التعب وأضناه السير ، ويسعد بقرش يكسبه ليشترى به خبزاً جافاً يأكله فينعم به — إن كانت السعادة فى اللذة والطمأنينة وهدوء البال فما لا شك فيه أن هناك مجالاً للتفكير العميق « أينا أسعد » وتباً للعيش الناعم ، والمدنية المعقدة ، والرفاهية المترفة ، التى أرهفت حواسنا وإحساساتنا ، وأفقدتنا الصبر واحتمال المكاره ، وجعلتنا نفر من نعيم إلى نعيم أدق منه نظن فيه السعادة ، وما السعادة إلا فى العيش البسيط والمران على الجلد ، واحتمال ألوان الحياة وصنوف التعب ، وأقلها الحر والبرد ، إن تحتمل الحر فلا حر ، وان تحتمل البرد فلا برد ، وان تعتدْ بساطة العيش تكره نفاق المدنية ، وان السعادة لخيرُ ما يحقق مذهب « اينشتين » فى النسبية ، فكل شىء فى الحياة من لذة وألم نسبى ، وليست اللذة والألم يعتمدان على الشىء الخارجى فحسب ، بل هما نتيجة تفاعل بين الشىء الخارجى والنفس ، ويختلف هذا التفاعل اختلافاً كبيراً باختلاف النفوس ، فليس الألم من الحر والبرد يعتمد على درجة الحرارة وحدها ، بل إن صلح الترمومتر أن يكون مقياساً لحرارة الجو ، فلا يصلح أن يكون مقياساً لألم النفس من الحر ، وليس لهذه الحال ترمومتر مشترك يتساوى فيه الناس ، إنما لكل انسان فى الألم من الحر والبرد ترمومتره الخاص ، ولذلك ترى من يموت من الحر ، ومن يموت من الضحك على الحر — ومن الغريب أن يتوجه كل الناس بكل مجهودهم للتخلص من الحر بالاصطياف وسكنى الشواطئ والمراوح والمرطبات ، ولا يبذلون أى جهد فى الناحية الأخرى وهى الناحية النفسية بترويضها وتمرينها على الاحتمال ، وتعويدها الصلابة ، وهذا فى نظرى ليس أقل شأناً ولا أصغر قيمة من العلاج الأول

* * *

وخطر لى أن علماء الجريمة يذكرون أن هناك أنواعاً من الأجرام تكثر فى الصيف كالأجرام الجنسى ، وأنواعاً تكثر فى الشتاء كأجرام السلب والنهب ، فقلت لعل ذلك أيضاً فى الأدب ، فالأدباء يهيج بعضهم على بعض صيفاً أكثر مما يهيجون شتاء ، ويهيجون فى القاهرة أكثر مما يهيجون فى الاسكندرية ، إن شئت مصداق ذلك فانظر ما كان بين من يسمونهم أدباء الشيوخ وأدباء الشباب ، وانظر ما كان بين أدباء الشيوخ بعضهم وبعض ، وأدباء الشباب بعضهم وبعض ، أليس هذا كله فعل الحر ؟ أوليس من كان فى الاسكندرية على شاطئ البحر كان يعجب من فعل الحر فى أدباء القاهرة ؟ — ولئن كان الحر يؤاخذ على ماجنى من تعريض العلاقات بين بعض الأدباء لخطر ، فانه يشكر على أنه استطاع أن يستخرج من الأدباء قطعاً فنية بديعة أكملت أبواب الأدب ، فان القدماء قد عدوا من أبوابه باب الهجاء كما عدوا باب المديح — كما أنه يشكر إذ لم يساط ناره الحامية على الأدباء طويلاً فقد حوّل عدسته الى غيرهم ليتنازعوا فنجا الأدباء من ثورته ، وهدأت عواطفهم وتصافت نفوسهم

* * *

وأخيراً خطرت لى محمدة جليلة للحر القائظ ، والبرد القارس ، وقلت إن هذه المحمدة تفوق كل ما كان للحر والبرد من سوء ، ولولاها لما تقدمت الانسانية ، ولما رقى النوع البشرى هذا الرقى ، ولظل هائماً على وجهه كالوحوش ، ذلك أن الشمس بنارها اللافحة ، والحر بشدته اللاذعة ، والبرد بحدته القاسية ، وأمطاره المنهمرة ، وبرَده وثلوجه ، والطبيعة العنيفة — بعواصفها ورياحها — كل ذلك هو الذى ألجأ الانسان قديماً الى أن يبحث له عن ملجأ يأوى اليه من الحر والبرد ، فسكن الكهوف فى نشأته الأولى وظل يرتقى فى ضروب من الارتقاء حتى أسس البيت ، وأسس الأسرة ، وكونت الأسر القبائل والمدن ، وكونت هذه القبائل الأمم ، ثم تعاونت الأمم على ترقية النوع الانسانى ، فلولا الحر والبرد ما أظن أن قد كان بيت ، ولولا البيت ما كانت أسرة ، ولولا الأسر ما كانت أمم — أليس الحر والبرد إذن كانا أفعل فى ترقية النوع الانسانى من كل مظاهر الحياة وظواهر الكون ؟ فاذا قلنا إن تقدم النوع البشرى مدين فى تقدمه لرداءة الجو ، وشدة الحر والبرد ، لم نُبْعِد

* * *

خطر لى كل هذا حينما حاولت أن أكتب فى الحر فبدأ الضجر يقل ، والألم يحتمل ، والنفس تهدأ ، والعاصفة تسكن والاحتمال يقوى — فهل هذا يستمر ؟ سأجرب

على كل حال قد هزئت بالحر ونسيته — ولو الى حين — بكتابة مقال فيه ؟

احمد امين